بنية الحزن
بين الثبات والتحول
مقاربة في ديوان نهر الذكريات لمحمود الرجبي

أ.د. عبد الستار البدراني

شاعر وناقد من العراق

الحزنُ أفقٌ يمتلك
شرعية التحكم في
لاوعينا المعلن.

الحزن متوالية عثرات في نبض القلب ، لامجال للخروج منها بأي شكل من الأشكال ، لا سيما في حالة الانسان الأكثر حساسية لما يحدث له او للآخر ، يعيشه ، يتنفّسه ، كما لوان أنه الهواء الذي يمنحه البقاء ، وفي الوقت نفسه يخدّش فضاءاته الناعمة ، مخرجا هدوءه من الهدوء الى كآبة غي محمودة غالبا .

بدءا من عنوان ديوان قصائد (التانكا) للأستاذ / الشاعر محمود الرجبي (نهر الذكريات) ، يلاحظ أن المُرَكَّب الاضافي التخصصي (نهر الذكريات) ، يعطي منذ الوهلة الاولى مفهوم الجريان واللا انقطاع بوصفه (نهرا) ، ولعل النهر هنا معادل موضوعي للشاعر ، على اعتبار ان الذكريات خصيصة انسانية لا تتلاءم الا معه دون المخلوقات الأخرى . فضلا على أن (نهر) مفرد في حين (الذكريات) جاءت جمعا ، ويبدو انها محملة بدالة الحزن كثيرا ، ولا أحسب الذكريات باعتبارها استرجاعا لعوالم غابت ، الا منطقة للحزن ، حتى لو كانت ذكرى فرحة الا انها في لحظة التذكر تكون في منطقة الغياب ، ومن هنا فهي ليست أكثر من مسافة حزن تحفر في مشاعرنا نسيجها المؤلم. ترى هل هي محاولة لتأسيس لذة في الألم على طريقة " الفناء في الألم " أو هي حالة تؤكد نفسها باعتبارها تاريخا لا يمكن الخلاص منه في ذهن الانسان / الشاعر على الخصوص ، وغير الشاعر على نية العموم .

ويبدو ان عنوان الديوان أيضا يحيل على أن القصائد المتضمنة (ذكريات) تتصف بالجريان (نهر) ، ولا تتوقف عند حالة / ظاهرة ، ومن المعروف في الدرس النقدي المعاصر أن العنوان بنية (تعلن ، وتلزم ، وتوجه قرائيا) ، على الرغم من أنه بنية افتقار ، لكنه يشي تماما بما يأتي بعده ، بل ويتضمن كثيرا من مخبوءات النص الذي يليه . ولعلي في هاته المقاربة لا اراهن على ان الحزن دالة سلبية كما هو معروف غالبا عند أغلب الناس ، لكنه ومن جهة أخرى يمكن ان يكون وسيلة للإحساس الاعمق بالفرح والحياة على نية ان الاشياء تتمايز بأغيارها . وعي الحزن يؤدي حتما الى شفافية الوعي بالفرح بل وعمق الوعي بالفرح والانتشاء به .
ثمة اذن رغبة كبيرة في تشخيص واحتواء عالم الحزن ، فهو مناط رؤيا تسعى الى لملمة الوجع في صور ابداعية تشعرنا حتما بالحضور والانعتاق ، من متاهة القاع .

لا شك في أن اي منظومة شعرية كانت أم سردية لا تنهض على اكراهات مفتعلة ، وانما تنبني على ما تؤثثه الذاكرة والادراك معا في مسار الكتابة الممكنة ابداعيا . والرجبي / الشاعر يمتلك الرؤيا التي تسمح له أن يرى العالم من الداخل والخرج بروح رقيقة تستكشف عوالم الحزن وتحولاته ، وتسعى حتما الى اعادة انتاج العالم بروح الاختلاف . وتحرير الحزن من وجع محجوز الى ثقافة ابداعية تتشكل في حضور جمالي معاصر .

تشكل الظهورات اللسانية في تانكا بعنوان(مطر) عالمين : الاول فضاء يمكن ان يكون معتما بدالة (الغيوم) ، وفي الوقت نفسه يوحي بعتمة النفس ؛ لأنه الم معطل عن اداء وظيفته الرئيسة في ارواء عطش الأرض :

مرشات الغيوم معطلة.
السماء تطلب المساعدة .

(عطل الغيم) ، لا يدفع الأرض الى طلب المساعدة وانما (السماء) النقطة الاقرب الى الغيم ، هي التي تطلب المساعدة ، وهذا ما يدفعنا الى التساؤل : أيمكن ان تكون السماء جافة الى هذا الحد الذي يدفعها الى طلب مساعدة ، وممن .؟

العيون بحزنها .
سيفيض هذا الكون بحزنها .

مطر

مرشاتُ الغيومِ معطلة
السماءُ تطلبُ
مساعدةَ العيونِ بدمعها
سيفيضُ هذا الكونُ بحزنها
فكلُّ ما حولي حزينْ!!

من السماوي الى الارض ، السماء تنادي (العيون) لتساعدها في تصحيح العطل (مرشات الغيوم) تفعيل الغيوم لتؤدي وظيفتها ، لعل الاستنجاد بالعيون سيتيح لنا ان نفهم أن السماء من الممكن أن تلين لدمع العيون ، هذا الربط الجمالي الرائع بين سماءين (سماء غائمة / عيون دامعة) علاقة التشابه تقوم على أسس متعددة ، ربما ابسطها متلازمة الماء ، واللون بصفوه او بعتمته ، فانه يشكل علاقة متينة بين عالمين ، عيون تتطلع الى الاعلى ، وأعلى يتطلع الى الأدنى (العيون)، الاعلى يمكن ان يسح بالماء والأدنى أيضا يسح بالماء ، على الرغم من الاختلاف بينهما في البعد الوظيفي المنطقي الا ان الصورة في المنطق الشعري ممكنة جدا ، وقادرة على عقلنة العلاقة بين منظومة سماوية وأخرى ارضية باعتبارات المعادل الموضوعي للحالة والتشابه في الدوافع المتضمنة للماء ، سماء حزينة / عيون حزينة . الكون كله من منظور (الناص) أصبح حزينا .:

كلّ ما حولي حزين .

ا(لدمع) . الدال الأكثر اقترابا من الحزن على التغليب ، هو الرؤيا القادرة على صناعة دائرة حزن كونية تتضامن مع (مرشات معطلة ــ الغيم) ، على اعتبار ان الغيم عيون السماء الباكية . سماء / عين .... مطر / دمع . تشكل كونا أقرب ما يكون الى حضور = حزن ، وليس حزنا عاديا ، إنه في مخيلة النص حزن شمولي يتلبّس المحيط كله من منظور النص . يتحد المنظور بين (الناص / النص) ليكون كونيا لا فرديا ، غير أن الرؤيا الفردية والادراك الذاتي هو الذي اسقط على الكون روح (العتمة) ، والجفاف .

وفي نص (شعور) ، أيضا تبدو العين نقطة ارتكاز مهمة لرصد دالة (الحزن) ، فالعين ، تقطع في منطقة الحجز ، أقصد أن بينها وبين الخارج حاجز على الرغم من شفافيته الا أنه يبقى حاجزا مهما ، لاستكمال صورة الوحشة :

عينان خلف النافذة .
تحرثان الطريق .

شعور

عينان خلف النافذة
تحرثان الطريق
ينمو عشبُ الحزنِ
يُزهرُ مِنْ جديدْ
وأنا وحيدْ!!

ماذا تفعل هاتان العينان خلف (نافذة) ، لا تؤدي العين هنا وظيفتها المعهودة (الابصار) ، وإنما يأخذنا الانزياح الى وظيفة أبعد ما تكون عن عالم الابصار (الحراثة) ، والاكثر من هذا ان التوقع ينكسر حين نعلم ان (الحراثة) ليست لزراعة الارض ، وإنما حراثة الطريق ، أليس هذا المشهد يلمح الى أن الرائي يحاول ان يبحث عن أنيس من خلال من مراقبته للطريق من (نافذة) ، يحرث الطريق ، يشقه بعينيه ، علّه يجد أحدا ما يكسر وحدته التي تملأ قلبه حزنا ، لكن هذه الحراثة على انها دال ايجابي الى ان بذورها لا تنمّي الا (عشب الحزن) . :

تحرثان الطريق .
ينمو عشب الحزن.
يزهر من جديد .

العشب الذي يمتلك خاصية الازهار بعد الانكسار ؛ أي ان الوحشة / الحزن ، ظاهرة ديمومية ، لا تقبل الخروج من منطقة الوجع ؛ بل تزهر دائما وجعا يؤدي حتما الى البقاء في منطقة :

وأنا وحيد.

عين تحرث الطريق لا تؤدي الى بقاء عشب الحزن وبالنتيجة . وحشة الوحدة . لا خلاص من حزن ينمو ويزهر في ذاكرة وحيدة .
من نص (شعور) الى نص (شجون) ، بدءا العنوان جاء بصيغة الجمع (شجون) مفردها (شجن) ، والشجن في معناه المعجمي ، يمكن ان يعطي أكثر من معنى أحسب انها جميعا يمكن أن تصب في بوتقة الحزن ، فمن معاني الشجن (الغصن المشتبك) ، والاشتباك ، غالبا ما يؤدي الى تفاعل يسبب الهم . ويعني ايضا (تلازم الحزن والهم) .، وعودا على بدء ، دالة العنوان المصاغة بصيغة الجمع ، تعطينا حتما فكرة ان الحزن ليس ظاهرة واحدة وانما هو متشابك الاغصان ، كثير الاحزان والهموم ، ترى ما الذي يؤدي الى مثل هذا الاشتباك المقيم في الكآبة ، المشهد يعطينا في دالته الزمانية وقتا يفترض عند اغلبية البشر (التفاؤل) :

هذا الصباح .
لا وقت للحزن .
أو حتى الفرح.

لكنه صباح يلغي كل عمليات التفاؤل ، بدلالة العلاقة المنفية (لا ... وقت ـــ للحزن ، ثم التخيير ... أو الفرح .) . اذن الوقت لمن .؟ هناك شاغل آخر أكبر من هاته العلاقة الضدية ، إنه (الغياب) ، الغياب ، ليس بمفهومه البراني بل الذاكراتي :

ذاكرة الغياب .
جليدٌ ضدّ الكسر.

ما تشكله الذاكرة من غياب من الصعوبة ان يدخل في متاهة النسيان ، انه حصار ابدي لا خلاص من وجعه الا بالخروج منه ، وكيف يمكن أن يخرج الانسان من ذاكرة تحاصره في حله وترحاله ، انها (جليد لا ينكسر) . لا مناص من الوجع على الرغم من الصباحات المضيئة .

وفي نص (أسود) يضعنا الناص من خلال الاخبار في منطقة تعميم مقصودة حتما :

الليل أسود.
الحزن أسود .
الظل أسود .

في الواقعة العيانية (الليل والظل) يصدق عليها اللون = السواد ، لكن الحزن كيف يأخذ دالة اللون الاسود ، وهو أمر معنوي غير قابل للتحقق على مستوى الحاسة = البصر = العين ، غير أنه أكتسب اللون بدلالة السلوك البيئي فالسواد يليق بالحزن على الاموات كما تؤكد الاعراف = الذاكرة الشعبية ، وفي البنية الثقافية لا سيما الشرقية (الاسود) شؤم بدلالات كثيرة لا مجال لذكرها في هذه المقاربة ؛ لأنه = الاسود سيخرجنا الى مستويات اقتراب أخرى تبعدني عن التمركز في ظاهرة الحزن عند الرجبي .ويذهب (الناص) الأنا النصية الى الكلية والتعميم:

كل الأشياء القريبة تدخل في السواد.

لماذا ليست البعيدة . أيضا . ؛ لأن البعيد لا يجعلنا نحس بالشجن كثيرا كما يفعل القريب ، يستثني من هذه الكلية شيئا واحدا :

قلبي الأقرب يفوح بالبياض .

القلب ياسمينة عبقها / فوحها البياض ، كل نبضة من قلبه تفوح بالبياض ، ولا شك في انه يسعى الى التأكيد على ان سلوكه تجاه الآخر الجاحد الناكر للجميل ينبع من قلب (أبيض) . غير أن هذا القلب الأبيض ينظر بعين النور ، فيعلم حقا أن الآخر يتنكر لهذا البياض ، فيبقى حتما أسودا .

وفي نص (وداع) ، يقترن العنوان بما سبقه من عنوانات كلها تشتغل في منطقة (الجليد الذي لا ينكسر- الغياب) ، ليس من مشاعر تفوق مشاعر لحظة الوداع ، تلك اللحظة التي تجعل الانسان كتلة من الجمر. يمكنها حرق الوجود ، حتى ان الزمن لا يستطيع العبور فوقها او من خلالها ؛ لأنه بالنتيجة سوف يخرج خاسرا .:

الزمن لا يحسن التزلج .
فوق جليد الفراق .

الفراق ، الغياب ، الجليد .. هذا التثليث المؤدي الى انفاق العتمة والمناديل المبللة بالوجع ، زمن لا يتقن مهارة الانزلاق على (الفراق) ، وفي الوقت نفسه لا يمكنه أيضا أن يكسر جليد الغياب ، على العكس الزمن بستاني ماهر في غرس الوجعين (الفراق والغياب) ، وبالتالي لا يمكن باي حال من الاحوال أن يقفز الانسان فوق هذين العالمين ؛ لأنها يعرشان في ذاكرة لا تعرف للمحو طريقا أبدا ، ولأنه يتقن قدراته ويعرف مدى قدراته ، لا يحاول الزمن أن يستخدم أكثر من طاقته ليقفز فوق الوجع ، وهو هنا يساوي الانسان لأنه بالنتيجة سيتمزق تماما :

لذا يتوقف دائماً .
قبل أن يتشقق ويذوب .
من حرارة الحزن .

مرة أخرى يفوز (الحزن) وبجدارة في كونه أكثر بقاء وازهارا ونموا في ذاكرة الانسان ، على اعتبار أن الانسان لا يملك في هذا الوجود الا أن يحزن لفراق أو غياب .
يمثل عالم الرجبي في (بنية الحزن) حيزا خصبا لرؤيا العالم / الذات. إنه العين التي تحدق في نوح الفاجعة الانسانية. عالم اليوم ليس أكثر من حفلة تنكرية متورطة في غرس وتأصيل المزيف على حساب نقاوة واصالة الاهم من هذا كله (قلب يفوح بالبياض) .

أ.د. عبد الستار البدراني